النقطة والشبكة

مقالة في وحدة الحرف العربي، من نقطة ابن مقلة المعينة إلى الصفحة المبذورة

GEVIERT

١

النقطة

في بغداد، في القرن الرابع الهجري، وضع الوزير ابن مقلة قاعدةً غيّرت الكتابة العربية إلى الأبد: أن يُقاس الحرف لا بالعين وحدها بل بوحدة معلومة. الوحدة التي اختارها كانت النقطة المعينة، أثر القلم إذا ضُغط على الورق ضغطةً واحدة بزاوية القطّة نفسها. فالألف عنده سبع نقاط منضّدة، والباء بسطتها كذا نقطة، وكل حرف بعد ذلك منسوب إلى الألف ومحيط بدائرة قطرها الألف. سمّى الناس طريقته الخط المنسوب، أي الخط المقاس بالنسبة.

النقطة المعينة هي أقدم وحدة طباعية نعرفها في هذا الفن: وحدة تُشتق من الأداة نفسها، ثم يُبنى عليها كل شيء. ومن يقرأ هذا الكتيّب في القرن الحادي والعشرين سيجد الفكرة نفسها تحت كل سطر فيه: وحدة هذا الكتاب هي ارتفاع السطر، أربع عشرة نقطة طباعية، وكل مسافة عمودية فيه عدد صحيح من هذه الوحدة. النقطة تغيّرت، والقاعدة باقية.

الفرق الجوهري بين ابن مقلة وبين خطاطٍ يجوّد بالسليقة ليس في جمال الناتج، فقد سبقه المجوّدون وجاء بعده من هو أجمل يدًا. الفرق أن قاعدته قابلة للنقل والتعليم والفحص: يستطيع تلميذ في قرطبة أن يتحقق من ألفِ معلّمٍ في بغداد لم يره قط، بعدّ النقاط. القاعدة المكتوبة أبقى من اليد، ولهذا وصلنا خطه ولم تصلنا يده.

وهذا بالضبط ما تدّعيه هذه المكتبة لنفسها في زمن الشاشات: أن التصميم الجيد ليس ذوقًا غامضًا يُورَّث بالصحبة، بل قواعد يمكن كتابتها بلغة يفهمها الحاسوب، ثم فحصها بمئة اختبار وأكثر. ما قاله ابن مقلة للخط تقوله الشبكة للصفحة.

٢

السطر والعمود

السطر العربي كائن أكثر مرونة من نظيره اللاتيني. الحروف تتصل، والكلمة تنكمش وتمتد، والخطاط يملك حيلةً لا يملكها عامل التنضيد اللاتيني: الكشيدة، ذلك المدّ الأفقي الذي يُدخل في جسد الكلمة نفسها فيسوّي السطر من داخله. في المخطوطات الجيدة تكاد لا ترى سطرًا قلقًا، لأن التسوية موزعة على الحروف لا محشورة بين الكلمات.

هذا الكتيّب مضبوط بالمسافات لا بالكشيدة: الفراغ بين الكلمات يتمدد بين ٠٫٥٥ و٤ من المسافة الطبيعية، والسطر الأخير من كل فقرة يُترك على سجيته ولا يُضبط أبدًا. نقولها صراحةً لأن الإفصاح عن حدود الأداة جزء من أمانتها: الكشيدة الحقيقية تحتاج إلى معرفة بمواضع المد الجائزة في كل خط، وهي باب مفتوح للنسخ القادمة من هذه المكتبة، لا دعوى ندّعيها اليوم.

أما القياس فمسألة أدق مما تبدو. عرض الكلمة العربية ليس مجموع عروض حروفها المفردة، لأن الحرف يتشكل بجيرانه: الهاء وحدها غير الهاء في أول الكلمة غير الهاء في وسطها. لذلك يُصفّ هذا الكتاب داخل متصفح حقيقي، ويُسأل المتصفح عن عرض كل كلمة مشكولةً كما ستُرسم فعلًا، فتقف السطور على شبكة الأساس بفارق أقل من جزء من مئة من النقطة.

العمود في هذا الكتاب ضيّق عمدًا، نحو خمس كلمات في السطر، وهو قياس تسمح به الفقرة العربية لقصر كلمتها المتوسطة عن اللاتينية. والصفحة عمودان، يمتلئ الأيمن قبل الأيسر، وتقع الحافة المشرشرة على اليسار حيث ينتهي البصر لا حيث يبدأ.

٣

الصورة في الحقل

لم تكن الصورة في الكتاب العربي المخطوط حليةً تُلصق حيث اتفق، بل كانت تسكن مساحتها سكنى مقصودة. انظر إلى مكتبة الحريري كما

اللوحة ٢. ساعة الفيل، من كتاب الجزري في الحيل الميكانيكية، نحو ٧١٢ هـ / ١٣١٥ م. الرسم مواصفة، والموضع شرط الفهم.

اللوحة ١. مكتبة الحريري بيد يحيى الواسطي، مقامات الحريري، بغداد ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م. الرفوف شبكة حقول قبل الشبكات.

رسمها الواسطي سنة ٦٣٤ للهجرة (اللوحة ١): الرفوف نفسها شبكة، حقول صغيرة متساوية تنضّد فيها الكتب كما تنضّد الصور في حقول هذا الكتاب، والمجلس تحتها شريط أفقي يشغل عرض الصفحة كله. الرسّام قسّم قبل أن يرسم.

وفي كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل للجزري (اللوحة ٢) تصبح الدقة شرط الفهم لا طلب الجمال: الرسم هنا مواصفة هندسية، فإن زاغ الأنبوب عن موضعه بطل الشرح. صفحات الجزري أقرب أسلاف الرسم التقني، وهي تفهم ما تفهمه كل شبكة: أن للصورة موضعًا صحيحًا واحدًا تحدده وظيفتها في النص، لا ذوق الناسخ.

أما عبد الرحمن الصوفي في كتاب صور الكواكب (اللوحة ٣) فيقدّم أعجب درس في الكتاب المصوّر كله: كل كوكبة مرسومة مرتين، مرةً كما تُرى في السماء ومرةً معكوسةً كما تُرى على الكرة

السماوية. صورتان لحقيقة واحدة، يولّدهما قانون تحويل واحد. من ألف عام كان في سمرقند من يفهم أن الصورة دالّة، وأن الأصل هو القاعدة التي تولّد الصور لا الصورة نفسها.

في هذا الكتاب تسكن كل صورة حقلًا أو حقولًا كاملة من الشبكة، ولا تُقص أبدًا: إذا خالفت نسبة الصورة نسبة حقولها حُفظت نسبتها وعُلّقت من أعلى الحقل، وتبعها تعليقها حيث انتهت حافتها. القصّ إذن استئذان صريح لا سلوك مضمر، لأن صفحة مخطوطة تُقص حافتها ليست صفحة، بل شهادة مبتورة.

اللوحة ٣. الدب الأكبر كما يُرى على الكرة، من كتاب صور الكواكب الثابتة للصوفي، نسخة مكتبة بودليان. كل كوكبة مرسومة مرتين بقانون تحويل واحد.

٤

من القلم إلى المعدن إلى الشيفرة

حين وصلت المطبعة إلى العربية وصلت متأخرة ومثقلة. الحرف المتصل الذي يتشكل بجيرانه احتاج في التنضيد المعدني إلى مئات القوالب للحرف الواحد بأشكاله وتراكيبه، حتى بلغت خزانة مطبعة بولاق في القاهرة، التي بدأت العمل سنة ١٢٣٦ للهجرة الموافقة ١٨٢٠ للميلاد، مئات الأنواع حيث تكفي اللاتينية بضع عشرات. كل جمال الخط المنسوب صار عبئًا صناعيًا.

فكان القرن العشرون قرن التبسيطات المؤلمة: طُرحت أشكال، ووحّدت أسنان، وصُمّمت خطوط مبسطة تصلح للآلة الكاتبة وصفّ الأسطر، وخسرت الصفحة العربية المطبوعة كثيرًا من مرونة المخطوطة. لم يكن ذلك خيانةً من أحد، بل حدود أداةٍ صلبة فُرضت على كتابة سائلة.

ثم انقلبت الآية مع الحاسوب: صار الحرف شيفرةً مجردة، وصار التشكيل السياقي برنامجًا يجري عند كل رسم، فاستعادت العربية الرقمية ما خسرته المعدنية. واليوم حين يقيس هذا الكتاب كلمةً، فإن الذي يجيبه هو محرك تشكيل كامل يعرف صور الحرف كلها. المفارقة لطيفة: أوفى وريث لقلم القصب هو عتاد الرسوميات.

٥

البرنامج

البذرة

كل قرار صغير في هذا الكتاب، أين انكسر السطر، وفي أي حقل نزلت اللوحة، خرج من بذرة واحدة: سلسلة حروف قصيرة تُحوَّل إلى أرقام والأرقام إلى اختيارات. البذرة نفسها تعيد الكتاب نفسه حرفًا حرفًا إلى الأبد، وبذرة أخرى تخرج كتابًا شقيقًا يحترم القواعد كلها ويختلف في كل قرار.

البرنامج لا الحل

كتب كارل غيرستنر سنة ١٩٦٤ أن على المصمم أن يصف برامج للحلول لا حلولًا للمشكلات. هذا الكتيّب ترجمة عملية لتلك الجملة إلى العربية: لم يصمم أحدٌ صفحاته واحدةً واحدة، بل وُصفت القواعد، قواعد ابن مقلة في الوحدة وقواعد الشبكة في الحقول، ثم مُدّت اليد في فضاء الصفحات الصحيحة ببذرة. ما تراه هو ما وجدته اليد.

وليس في هذا انتقاص من المصمم، بل نقل لموضع عمله: من ترتيب المفردات إلى تشريع القواعد. الخطاط المنسوب لم يكن أقل فنًّا من المجوّد بالسليقة، كان فنه في مكان أعلى. كذلك من يكتب برنامج تصميم: إنه يصمم كل الصفحات الممكنة دفعةً واحدة.

إفصاح

سُطور هذا الكتاب على وحدة ١٤ نقطة، متنه ٨ على ٦، وعناوينه ١٦ على ١٢ تشغل سطرين كاملين، وأرقام فصوله ٢٢ على ٦، وتعليقاته ٦ على ٨، وكلها مضاعفات الوحدة بلا استثناء. صفحته عمودان على شبكة من اثني عشر حقلًا، وبذرته «شبكة-١». هذه الأرقام ليست سرًّا مهنيًا، إنها الكتاب نفسه.

صُفَّ هذا الكتاب بالبرنامج من فضاء الكتب الصحيحة؛ البذرة «شبكة-١». قيست كلماته مشكولةً في المتصفح، وامتلأت أعمدته من اليمين إلى اليسار، وامتدت مسافاته في الضبط الكامل بين ٠٫٥٥ و٤ من المسافة الطبيعية، ولم يُضبط سطر أخير قط، ولم تُقْص صورة قط. اللوحات: الواسطي، مقامات الحريري، بغداد ٦٣٤ هـ، المكتبة الوطنية الفرنسية؛ الجزري، الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، متحف المتروبوليتان؛ الصوفي، كتاب صور الكواكب الثابتة، مكتبة بودليان، أكسفورد. كل مسافة عمودية عدد صحيح من الأسطر.

GEVIERT